

## كلمة التحرير

### أهمية البحث في النظام المعرفي

أشرنا في التقديم للعدد العشرين من "إسلامية المعرفة" إلى محاور البحث الرئيسية التي تبناها المعهد العالي للفكر الإسلامي. وأكدنا فيه على أهمية بناء الرؤية الكلية للإنسان المسلم، في ضوء مقاصد الدين وغاياته العاقمة؛ وهي رؤية تتصف بالبساطة واليسر عندما يتعلق المر بالجوانب السلوكية والتطبيقية، كما تتصف بدرجة عالية من التجريد والتماسك والشمول عندما يتعلق الأمر بالتحليل النقدي وصياغات النظرية.

وترتبط الرؤية الكلية **Worldview** في أية دائرة حضارة بطبيعة النظام المعرفي الفاعل في تلك الرؤية، وبمنهجية التفكير والبحث المنبثقة عن ذلك النظام العرفي. وسنتناول في هذا التقديم أهمية البحث في النظام المعرفي وضرورة تطوير فهمنا لطبيعته وخصائصه ومكوناته وتطبيقاته.

إن المواجهة التي يجد المسلمون أنفسهم فيها مع الواقع الثقافي والحضاري للعالم اليوم، لا تقتصر على الصور الظاهرة من تخلف وتجزئة وتبعية، في المجالات السياسية والاقتصادية والتعليمية وغيرها، وإنما اخترقت أنماط التفكير والفهم والنظر غير الإسلامية عقل المسلم ووجدانه، حتى أنها تسربت إلى طريقة فهمه ووعيه لصادر الدين الأساسية؛ المر الذي يستدعي أن ينفر للجهاد العلمي والفكري في هذا المجال طائفة من أهل العلم، ليُندروا قومهم المنشغلين بالجهاد في المجالات الأخرى.

فالاهتمام بالنظام المعرفي ليس تكلفاً لما لا حاجة إليه، ولا تنظيراً لما لا فائدة فيه، وليس مقصوراً على الدوائر الفلسفية والبحوث المتخصصة، فجميع الناس ينطلقون في تفكيرهم وفي عمليات الإدراك التي يمارسونها من نظام معرفي، سواءً بوعي منهم على ذلك أم بدون وعي. ويتمثل ذلك في أبسط أشكاله بالمسلمات والمبادئ والافتراضات النظرية الكامنة في أقوال الناس وأفعالهم، تماماً كما تمكن قواعد النحو في اللغة التي ينطقون بها أو يكتبونها. وعليه فإنَّ البحث في النظام المعرفي الإسلامي هو بحث في الهوية الحضارية

للأمة المسلمة، وأي إسهام في بناء النظام المعرفي وبلورته هو إسهامٌ في البناء الحضاري للأمة، وبيانٌ للمتطلبات اللازمة لوضع قواعد النهضة والجهود المبذولة من أجلها على أسس معرفية.

وقد ساد النظام التعليمي الغربي ساحة التعليم في البلدان الإسلامية طيلة القرن العشرين، سواءً في مستوى التعليم المدرسي أو الجامعي، إلى الحد الذي أصبحت فيه مصادر المعرفة الغربية هي المرجعية المعتمدة في العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية، بل إنّ هذه المصادر دخلت أيضاً إلى دائرة العلوم النقلية، سواءً في مناهج النظر والبحث أو حتى في عناصر المضمون والمحتوى. وعملت الألفة بما شاع وانتشر من معارف على حجب الأنظار عن خطورة كثير من المقولات العلمانية والافتراضات النظرة الكامنة المتجاوزة للاعتبارات الخلقية والقيمية الإسلامية.

إنّ الوعي اللازم على تلك المقولات والافتراضات والقيم الكامنة في مصادر المعرفة السائدة أمر ضروري وشرط حاسم للاستقلال الثقافي والتميز الحضاري. ولن يتوافلار مثل هذا الوعي في غياب النظام المعرفي، وغياب الإدراك العميق لطبيعة القضايا الكلية والأسئلة الهائية التي يوفرها ذلك النظام.

ومثلما سادت مصادر المعرفة الغربية ومناهجها ساحة التعليم، منذ مطلع القرن العشرين، اجتاحت أنحاء العالم في نهاية القرن تيارت العولمة التي حاولت أن تفرض على المجتمعات الإنسانية أنماطاً وقيماً معينة في نظم الحكم والاقتصاد والإعلام، وحتى في شؤون الحياة الأسرية والخاصة، ومثلت بذلك اختراقات عميقة للخصائص الثقافية والحضارية لمعظم شعوب لعالم. وكان من استراتيجيات تيارات العولمة أن تعمل بالترغيب والترهيب على إزالة جميع الحواجز، التي يمكن أن تشكل شيئاً من الحماية الثقافية لأي مجتمع من المجتمعات. وساعد على ذلك التقدم الكبير في وسائل الاتصال، والتسارع في إنتاج المعلومات والتطور المذهل في أساليب تبادلها، وبلغ الأمر في قوة تيارات العولمة وهيمنتها حداً يدعو الكثيرين، على مستوى الزعامات السياسية والقيادات الفكرية فضلاً على الشعوب المقهورة، إلى اعتبارها قَدراً لا رادّ له، ولا قِبَل للناس به، وانتهى بالاستسلام لشروطها واليأس من إمكانية مواجهتها أو حتى الاستفادة من الفرص الإيجابية التي ربما تتيحها.

وقد أصيبت النفسيات التي انتهى بها الحال إلى هذا المآل بأعراض مزدوجة، تتمثل في المبالغة في تقدير القوة الحضارية للآخر، وفي نفس الوقت التهوين من شأن الخصائص الحضارية للذات، وبالتالي فقدت التوازن في النظر إلى الأمور وضبط حساباتها، كما فقدت المرجعية في تقديم المواقف وتقييمها والحكم عليها.

ولو كان النظام المعرفي الإسلامي واضحاً لسادت الروح الإيجابية، التي ترى أن تحديث العولمة هي فرص لا حدود لها لعرض رؤية كلية للأشياء والأحداث والناس، في إطار عام من الزمان والمكان، تكون بديلاً للرؤية الجزئية القاهرة، المحكومة إلى اللحظة الراهنة في المكان الواحد؛ لو كان هذا النظام واضحاً لزوّد أباعه بأساس معرفي صلب، يجعلهم ينطلقون من إدراك شامل ووعي كليّ لمجمل العناصر والعوامل والمتغيرات، ويتعاملون معها على أنها رأس مال يملكونه، أو يملكون شيئاً منه، فتكون لهم شروطهم ومواقفهم المبدئية ولعملية، ويكون لهم وزنهم وحضورهم وفاعليتهم. أما غياب النظام المعرفي وفقدان ملامحه واهتزاز صورته فقد أدى إلى الوهن الذي يصيب الإنسان بالعجز، والغثائية التي تسقط الشعوب من الحساب.

إنّ الحضارة الغربية الحديثة، وهي تفرض نفسها على شعوب العالم عبر جهود العولمة، إنما تتقدم إليها باعتبارها حضارة عالمية تصلح لكل الشعوب، وهي خلاصة التطور البشري ونهايته الحتمية، وهي لا تقدم نفسها بمنجزاتها التكنولوجية والصناعية فحسب، وإنما تقدم نفسها على أنها رؤية متكاملة للعالم، لها إجاباتها المحددة للأسئلة النهائية، ولها فهمها لطبيعة الوجود البشري، وتتقدم بفكر شمولي تغذيه مؤسسات ضخمة للبحوث والدراسات والمناهج الفلسفية؛ أي تقدم نفسها على أنها نظام معرفي شمولي له معطياته الوجودية وابستمولوجية والمنهجية. إنها بهذه الصفة المعرفية تزعم لنفسها العالمية والمرجعية.

ولعل الإسلام هو الوحيد الذي يمكن أن ينافس المعطيات المعرفية للحضارة الغربية ويستوعبها ويعيد صياغتها على شكل نظام معرفي بديل، يرشّد هذه الحضارة ويقودها عبر عمليات تفاعل واندماج طوعي، ويخلصها من روح الهيمنة والاستغلال والطبيعة الصراعية.

وعندما تتحدد معالم النظام المعرفي فإن لك سيفيد في بيان المنطلقات المشتركة بين جماعات التخصص المختلفة ضمن النسيج الحضاري الواحد. وبفضل النظام المعرفي المميز للدائرة الحضارية الإسلامية، فإنّ جميع

الباحثين في هذه التخصصات المختلفة يحملن ملامح الذات الحضارية الخاصة والهوية المميزة للأمة والرسالة التي تحملها الأمة إلى العالم.

وسوف يفيد وضوح النظام المعرفي في إعادة صياغة المشاريع البحثية من حيث موضوعاتها ومناهجها وسياقاتها التاريخية، ويكشف عن جوانب الأصالة والتميز، أو جوانب التبعية الفكرية والثقافية. كما يعين وضوح هذا النظام المعرفي الإنسان الباحث على الخوض في عمق الظواهر الاجتماعية، ويتجاوز سطوح هذه الظواهر.

ومن باب التدريب الذهني، فإننا ندعو القارئ إلى إعمال العقل لتحديد عدد من الأمثلة، والتفكير في عدد من المواقف التي كان لوضوح النظام المعرفي الإسلامي لدى الباحث دور أساسي في تطوير ملكته النقدية في الكشف عن جوانب التبعية في الأعمال الفكرية وفي النفاذ إلى عمق الظواهر المدروسة وتفكيك دلالاتها، وكيف كان غياب الوعي على النظام المعرفي الإسلامي سبباً في حالات الاستلاب الفكري عند بعض الباحثين.

فهل ينهض علماء الأمة المسلمة ورجال الفكر فيها لتحمل مسؤولياتهم في بناء النظام المعرفي الإسلامي، وتفعيله في إنتاج المعرفة وتوظيفها وتوجيهها، وتمكين الأمة من استعادة هويتها، وتأكيدها حضورها، وتبليغ رسالتها، وهو ما تحتاج إليه شعوب العالم وتنتظره بفارغ الصبر!؟